غابر الاندلس وحاضرها

(١٤) مدينة اشبيلية

على شاطىء الوادي الكبير في اجمل بقاع الاندلس واعدلها هواء وازكاها تربة قامت هذه العاصمة التي كانت من اعظم مدن الاندلس بعد سقوط قرطبة في ايدي الاسبان وكانت مدينة الحظ والسرور على اختلاف الدهور والعصور . وليس اليوم في اشبيلية بقايا كثيرة من آثار العرب الا الجيرالدا او منارة الجامع الاعظم وهي اعجوبة اشبيلية ترى من مكان بعيد بناها مهندس عربي من سنة ١١٨٤ - ١١٩٦ لابي يوسف ابن يوسف من دولة الموحدين وهي من الآجر يدق حجمها كلما ارتفعت في الهواء وقاعدتها عبارة عن مربع ذي ١٣ متراً و٥٥ سنتمتراً ويزيد سمك الجدران على مترين وقد تشوهت بما زاد عليها الاسبان بعد خروجها من ايدي العرب وهي الآن قبة جرس البيعة الكبرى .

قال في ذيل اللباب : فدخل (يعني امير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن) اشبيلية في غرة صفر سنة ٥٩٣ فاخذ في اتمام بناء الجامع وتشييد مناره وعمل التفافيح من املح مايكون من عظمة لااعرف له قدراً الاان الوسط منها لم يدخل على باب المؤذن حتى قطع الرخامة من اسفلها وزنة العمود الذي ركب عليه اربعون ربعاً من الحديد وكان الذي صنعها ورفعها في اعلى المنار المعلم ابو الليث الصقلي وموهت تلك التفافيح بمائة الف دينار ذهباً ا هـ .

ومن اجمل ما في كنيسة اشبيلية اليوم والجامع امس ناووس من الصلب فيه بقايا خريستوف كولمبس الملاح الجنوي الذي اكتشف اميركا يحمله من اربعة اطرافه ملك قشتالة وملك ارغون وملك ليون وملك نافار وهو من صنع ميليدا سنة ١٨٩٢ كان في كنيسة هافان ثم نقل الى اشبيلية سنة ١٨٩٨ بعد ان تحررت كوبا من اسبانيا.

تقرب اشبيلية من البحر ولا ترتفع عن سطحه اكثر من ثمانية امتار وقد قال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفرنجة فيها : ليست الجيرالدا ولا سائر مصانع اشبيلية ولا كنوز آثارها وجميل نقوشها على الحيطان هي التي اشتهرت بها اشبيلية البديعة ورددت المثل الذي سار فيها « من لم ير اشبيلية لم ير غريبة » بل ان مااشتهرت به في جميع اسبانيا مظاهر سرور الحياة فيها من مراقص وافراح ومواسم وحركة البهجة الدائمة التي تنبعث من سكانها على الدوام .

جرت مناظرة بين يدي منصور بن عبد المؤمن بين العالم ابي الوليد بن رشد والرئيس ابي بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه : ماادري ماتقول غير انه اذامات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيهاواذا مات مطرب بقرطبة فاريد بيع تركته حملت إلى اشبيلية . وبهذا عرفت ان اشبيلية بلدة طرب وسرور في معظم ادواها . ولطبيعة الاقليم دخل كبير في هذا الشأن .

في اشبيلية قصور كما في قرطبة مصايف زرتها وزرت حدائقها وطوفت في اعطافها وهي ملك لاناس من اغنياء البلاد تتناقل من سيد فيهم إلى سيد ومنها ماجعل كما هو بيت بيلاتوس على الداخل اليه جعلٌ يتقاضاه الحارس ليصرف على الفقراء كما جعلت الحكومة على كل داخل الى معهد من معاهد العرب وغيرهم جعلاً من النقود لتصرف منه على الترميم فليس في البلاد ما يعفي الناظر اليه والزائر له من دفع النقود من متاحف وآثار الا اذا كان بعض المغاور والحصون والسدود الخربة التي قامت في كل ناحية من انحاء البلاد التي ظل فيها حكم العرب نافذاً دهراً طويلاً .

كانت اشبيلية تعد من العواصم بكثرة سكانها ولما سقطت في ايدي الاعداء هاجر من مسلميها فقط زهاء ثلثمائة الف مسلم الى قرطبة وجيان وبلنسية وغرناطة حيث كانت راية بني نصر تخفق . وناهيك ببلدة يهاجر من سكانها هذا العدد وسكانها اليوم ١٤٨ الفاً وتعد من المدن المتجددة وليس لها مسحة من القديم الا ما كان من بعد عهد العرب وقد سقطت من بعد جلائهم عنها الى الحضيض .

(١٥) مدينة غرناطة

بلد تحف به الرياض كأنه ... وجه جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادة ... ومن الجسور المحكمات سواره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا ماقاله ابن الخطيب في هذه العاصمة آخر ماحكمته العرب من ارض الاندلس من عواصمها وحواضرها جمعت فيها بقاياهم وجالياتهم فظلوا فيها نحو قرنين ونصف قرن وعمروها فادهشوا العالم بعمرانها . جاءها جميع المسلمين الذين لم يحبوا ان يبقوا في البلاد التي وقعت في قبضة العدو يحتمون بملوكها من بنى نصر جاؤها الوفاً الوفاً من قرطبة واشبيلية وبلنسية يحملون اليها ما كان مبعثراً من الصنائع والثروة في تلك الارجاء .

قالوا ان غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لانظير له في بلاد الدنيا وهو مسيرة اربعين ميلاً يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الانهر الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة . وحكى ابن سعيد ان غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكنى اهل دمشق بها عند دخولهم الاندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والاشجار وقد اطل عليها جبل الثلج ـ Sierra Nevada ـ كما اطل جبل الثلج أو جبل الشيخ أو جبل حرمون على دمشق ـ وفي ذلك يقول ابن جبير :

يادمشق الغرب هاتيـ ـك لقد زدت عليها
تحتك الانهار تجري وهي تنصب اليها

قال ابن سعيد : اشار ابن جبير الى ان غرناطة في مكان مشرف وغوطتها تحتها تجري فيها الانهار ودمشق في وهدة تنصب اليها الانهار وقد قال الله تعالى في وصف الجنة (تجري من تحتها الانهار) . اما غوطة غرناطة اليوم فليست كغوطة دمشق باشجارها الملتفة ولا كما كانت كذلك على عهد العرب بل هي جرداء مرداء ولذلك كان منظرها اشبه بمنظر سهل البقاع اذا اطللت عليه من سفوح لبنان الغربي .

وغرناطة في كورة البيرة من اشرف كور هذا الاقليم نزلها جند دمشق .

قال الرازي : وفحص البيرة اي سوادها وريفها لايشبّه بشيء من بقاع الارض طيباً ولاشرفاً الا بالغوطة غوطة دمشق .

وقال ابن الخطيب : وفحصها اي فحص غرناطة الافيح المشبه بالغوطة الدمشقية حديث الركاب وسمر الليالي قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب وتتخلله الانهار والجداول وتزاحم فيه الغرف والجنات في ذرع اربعين ميلاً ونحوها تنبو العين فيها عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجهه ولاتتخطى المحاسن منها مقدار رفعة الهضاب والجبال المتطامية منه بشكل ثلثي دائرة قد علت منه المدينة فيما يلي المركز من جهة القبلة مستندة الى اطواد سامية وهضاب عالية ومناظر مشرقة فهي قيد البصر ومنتهى الحسن ومعنى الكمال .

وينزل الثلج شتاء وصيفاً على جبل غرناطة وينبجس منه ستة وثلاثون نهراً كما تنبجس من سفوحه العيون . قال ابو الحجاج ابن حسان :

احنُّ الى غرناطة كلما هفت ... نسيم الصبا تهدي الصبا وتسوق
سقى الله من غرناطة كل منهل ... بمنهلّ سحب ماؤهن هريق
ديار يدور الحسن بين خيامها ... وارض بها قلب الشجيّ مشوق
اغرناطة العلياء بالله خبري : ... أللهائم الباكي اليك طريق ؟
وما شاقني الا نضارة منظر ... وبهجـــة داء للعيون تروق
تأمل اذا املت حوز مؤمل ... ومد من الحمرا عليك شقيق
واعلام نجد والسكينة قد علت ... وللشفق الاعلى تلوح بروق
وقد سل شنيل فرنداً مهنداً ... نضى فوق در ذرّ فيه عقيق
اذا نمّ منه طيب نشر اراكه ... اراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ... ثغور اقاح في الرياض انيق

ولما غدت غرناطة عاصمة ابن الاحمر من دولة بني نصر بالسيف تارة وبحسن السياسة مع الاحزاب المعادية أو بمحالفة القشتاليين الاسبانيين وبني مرين المراكشيين تارة اخرى جعلها العرب الذين طردوا من المدن المجاورة وطناً لهم ونشط ملوكها الصنائع والتجارة وعمروا الطرق والمجاري وتسلسل ذلك فيها فأتم الثاني ما بدأ به الاول وزينوا البلاد بابنية بديعة فاصبحت غرناطة اغنى مدينة في شبه جزيرة ايبريا وبحكمة امرائها انبعثت منها شعلة المدنية المغربية في اسبانيا وانست عنايتهم بالزراعة والصناعة عهد قرطبة وما كان فيها من العلوم والصناعات وجمال البناء واصبحت قصورهم مثابة العلماء والادباء والفلاسفة، فصارت المصر المقصود والمعقل الذي تنضوي اليه العساكر والجنود، ولما استولى عليها الاسبان سنة ١٤٩١ م بعد ان حاصروها سبعة اشهر فنيت في خلالها ازواد المحاصرين من العرب وفنيت خيلهم كما فني كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـ كان سكانها نصف مليون نسمة (نفوسها اليوم ٧٦ الفاً) فانحطت على عهد الاسبان بعد حين واقفرت من السكان بما اصدره الملوك الكاثوليك من الاوامر الخرقاء . ولما اشتدت فيها وطأة ديوان التفتيش الديني ظل الحكم والرهبان يستأصلون شأفة العرب حتى لم يبقوا منهم باقية وكان لها على عهد العرب ١٠٣٠ برجاً متزاحمة بالبيوت وقال ابن الخطيب ان الابراج بلغت الى مـــاينـاهز اربعة عشر الفاً وكان في جوارها ماينيف على ثلاثمائة قرية عدا مايجاور الحضرة من قرى الاقليم أو ما استضيف اليها من حدود الحصون المجاورة « وكان اكثرها امصاراً فيها ماينـاهز خمسين خطبة تنصب فيها لله المنابر وترفع الايدي وتتوجه الوجوه ويشتمل سورها وما وراءه من الارحاء الطاحنة بالماء ماينيف على مائة وثلاثين رحـًى »

(١٦) قصر الحمراء

همم الملوك اذا ارادوا ذكرها ... من بعـــدهم فبألسن البنيان
أو ماترى الهرمين قد بقيا وكم ... ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه ... اضحى يدل على عظيم الشان

الحمراء ويقال لها القصبة الحمراء ومعنى القصبة عندهم القلعة وتسمى حمراء غرناطة وهي مطلة على مدينة غرناطة إطلال الصالحية من سفح قاسيون على دمشق . سميت بالحمراء لاحمرار جدرانها بل للون التربة التي قامت عليها في سفح جبل غرناطة ومعظمها مبني بالخزف والكلس والحصباء . وفي قصبة الحمراء قصور العرب وهي ثلاثة قصور منفصلة عن القلعة وتدخل فيها المدينة الصغرى القائمة على تلك الاكمة وقد بني كل قصر منها في زمن غير زمن القصر الآخر وبقي من القصر الاول شيء قليل وهي المقصورة والكنيسة وكان جامعاً بناه محمد الثالث من ملوك بني نصر قال فيه ابن الخطيب : ان اعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء على ماهو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش وفخامة العمل وإحكام انواع الفضة وابداع اثرها انفق عليه من مال الجزية فظهر بها منقبة له يتيمة فاق بها من تقدمه من تأخره من قومه .

والقصر الثاني قصر الآس وفيه الآس الكثير كان مقر السلطان ومجلس الحكم أو دار السلطنة يقعد فيه للظالم ويستقبل السفراء وكبار رجال المملكة . والقصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الثالث منعزل عن القصرين الآخرين قليلاً وكان فيه دائرة حرمه ومساكنه الخاصة وفي هذا القصر صحن الأسود وهو في الجزء الاوسط منه .

فقاعة السفراء عبارة عن مربع مساحته ١١ متراً بعلو ١٨ كان الملك يستقبل بها وفيها ، عرشه إلى الشمال امام المدخل وهي تطل على ربض البيازين ومدينة غرناطة وقد ركبت في كل نافذة وسطى اعمدة صغيرة من العجمي أو الشمسية تدفع حرارة الشمس . ونقش هذه القاعة من اجمل ماحوت الحمراء وكان فيها ١٥٢ صورة مختلفة طبعت بالجص الطري على الجدران في قوالب من حديد وهي إلى الحمرة والزرقة المشبعة .

اما فناء الاسود فهو صحن واسع فيه اثنا عشر اسداً رابضاً من الرخام تحمل الاناء العظيم القائم وسط الدار ويخرج الماء من افواهها وتسيل الفوارات من اعلى الصحن الذي جعل قطعة واحدة كبيرة كأنه حوض واسع من احواض بيوت دمشق القديمة وكأن ابن حمديس الصقلي وصف هذه الدار عندما وصف دار المنصور ببجاية فقال :

واعمر بقصر الملك ناديك الذي ... اضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره ... اعمى لعاد إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه ... فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسي الصبيح مع المليح بذكره ... وسما ففاق خورنقاً وسديرا
ولو ان بالايوان قوبل حسنه ... ما كان شيئاً عنده مذكورا
اعيت مصانعه على الفرس الأولى ... رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور ومابنوا ... لملوكهم شبهـاً له ونظيرا
اذكرتنا الفردوس حين اريتنا ... غرفاً رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا اعمالهم ... ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت ... حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافـلاك الا انه ... حقر البدور فاطلع المنصورا
ابصرته فرأيت ابدع منظر ... ثم انثنيت بناظري محسورا
وظننت اني حالم في جنة ... لما رأيت الملك فيه كبيرا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا الولائد فتحت أبوابه ... جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم ... فغرت بها أفواهها تكسيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندها ... من لم يكن بدخوله مأمورا
تجري الخواطر مطلقات اعنة ... فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب انه ... فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه ... مسكاً تضوع نشره وعبيرا
يستخلف الاصباح منه إذا انقضى ... صبحاً على غسق الظلام منيرا
وضراغم سكنت عرين رئاسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها ... واذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك ... في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقمت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ... درعاً فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناي بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت إلى ... سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قد صولجت أغصانها فكأنما ... قنصت لهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لواقع طيرها ... ان تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ... ماءً كسلسال اللجين نميرا
خُرس تعدُّ من الفصاح فان شدت ... جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة ... لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موضع قطرها ... فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما ... جُعلت لها زُهر النجوم ثغورا
ومصفح الأبواب تبرأ نظّروا ... بالنقش بين شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت ... فلك النهود من الجسان صدورا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خلعت عليه غلائلا ورسية شمس ترد الطرف عنه حسيرا
وإذا نظرت إلى غرائب سقفه أبصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأن ماء اللازورد مخرم بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة تركوا مكان وشاحها مقصورا
يامالك الأرض الذى اضحى له ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رياسة منها ودمرت العدا تدميرا

وهناك قاعة الحكم وقاعة بني سراج المقصورة . تخرج من واحدة فتدخل في أخرى فتخالك في جنة عالية قطوفها دانية لا تستطيع وصفها لبدائعها الكثيرة وهناك قاعة اسمها قاعة الاختين كانت على ما يظهر لجلوس نساء الملك في الشتاء ونقشها من أقصى ما بلغه النقش العربي من الاتقان وأهم ما فيها المقرنص الذي حوى نحو خمسة آلاف شكل مختلف بعضها عن بعض تألف منها مجموع يصعب وصفه لجماله وقبتها أعجوبة البناء ومثال الصبر والعمل وكأنها كانت في يد صانعها كالعجين يعمل فيها ما شاء من الصور أو كأنها خلقت خلقة ولم تمسسها يد بشر .

وبالقرب من قصور الحمراء جنة العريف وهي حديقة كبرى فيها جميع أشجار القطر وأزهاره قامت هندستها في منحدراتها واكامها وبسائطها على أسلوب يأخذ بمجامع القلوب وفيها سطوح ومغاور ومخابىء وفوارات وسياج تشبه المصايف الايطالية في عهد النهضة وفيها كثير من شجر السرو ومن جملتها سروة يدعونها سروة السلطان عمرها نحو ستمائة سنة وتحتها فيما يقال تواعدت امرأة أبي عبد الله مع ابن سراج .

ولقد كان للسلطان أوائل المئة الثامنة في غرناطة ما يناهز مائة جنة مثل جنة العريف على ما روى صاحب الاحاطة وناهيك بمدينة فيها مثل هذا العدد الدثر من الجنان وذلك في الحقيقة من امارات المدنية والرفاهية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ورد ذكر الحمراء لأول مرة في واقعة حدثت سنة ٢٧٧ هـ فاعتصم بهـــا القيسيون من العرب وقد تأثرهم عصاة من الاسبانيين فنجـــا الامير الاموي بحيلة غريبة وخرج مخرجاً مدهشاً مع رجاله ولما استولى الموحدون على غرناطة التجأ المرابطون إلى هذا القصر . واشتهرت الحمراء على عهد دولة بني نصر أو بني الأحمر الذين استقلوا بامارة غرناطة بعد سقوط قرطبة واشبيلية وجعلوها عاصمتهم فانشأ محمد بن الأحمر قصره الملكي بالقرب من السور والقلعة وفي عهد الامبرطور شارلكان جعل جامع الحمراء كنيســـة فابدلت صورة القصر الملكي القديم وانشىء باب المدخل الذي يجتاز منه السور الذي طوله ٣٥٠٠ متر وفيه عدة ابراج .

وقالوا ان فرديناند وايزابيلا الكاثوليكية عنيا كل العناية بالحمراء لما اغتنما فرصة اختلاف العرب وامرائهم وعزما على اخراج جميع العرب من اسبانيا وقد امرا بترميم نقوشها الداخلية ورمما جدرانها وكان شارلكان على شدة حرصه على آثار الحمراء والابقاء عليها عمر مباني ليخلد فيها اسمه ولكنها لم تتم واوردوا في معرض البرهان على ولوعه بالآثار العربية مانسب اليه من القول عندما وقع بصره على آثار الحمراء : يالشقاء من اضاع كل هذا .

جاء في دائرة المعارف الإسلامية : وإذا وقع التنظير بين قصر الحمراء والقصور والجوامع التي بنيت على ذاك العهد في القاهرة مثـــلاً كجامع السلطان حسن الذي بني سنة ١٣٥٦ م تبين الفرق العظيم بين البنائين فانك ترى لهندسة جامع القاهرة امثالاً كثيرة في حين بني قصر الحمراء على غير مثال يحتذى ولا يوجد في مملكة من الممالك قصر اسلامي مثل الحمراء وبقدمه لم يبنَ له شبيه مع انه شيد بمواد سريعة الانحلال اللهم إلا أبنية العصر الأموي التي عثر عليها الباحثون في بادية الشام شرقي بلاد موآب وبعض الخرائب من العصر العباسي في سامراء والرقة .

وقصارى القول ان الحمراء مصيف تحف به حدائق واسعة ومتنزهات وفيه المياه الجارية والنبات والحيوان الكثير ونقوشه تبهر الأبصار . وفي مسالك الأبصار : ان الحمراء كثيرة المباني الضخمة والقصور ظريفة جداً يجري بها الماء تحت بلاط كما يجري في المدينة فلا يخلو منه مسجد ولابيت وبأعلى برج منها عين ماء وجامعها من ابـــدع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجوامع حسناً وأحسنها بناءً وبه الثريات الفضية معلقة وبحائط محرابه احجار ياقوت مرصعة في جملة ما نمق به من الذهب والفضة ومنبره من العاج والآبنوس .

ولما استولى ملوك قشتالة على الحمراء سلموها إلى مهندسين من العرب بلغ من حذقهم انك لا تعرف ما أدخلوه فيها من الاصلاح ولا تميزه عن الاصل الذي كانت عليه من قبل . ودام هذا الترميم في الحمراء إلى ثورة العرب سنة ١٥٦٩ وفي سنة ١٥٢٢ أصيبت بهزة أرضية وفي سنة ١٥٩٠ بحريق في مطحنة بارود سببت خراب أقسام منها ثم تركت وشأنها في القرن السابع عشر والثامن عشر وقد نسف جنود نابوليون سنة ١٨١٢ قسماً منها بالمواد الملتهبة معتبرين الحمراء حصناً وذلك عند جلائهم عن اسبانيا ثم أخذت همة حكومة اسبانيا تتجدد لاعادة الحمراء إلى حالتها الأولى .

ويقول جوسيه إن ملوك اسبانيا لما دخلوا الحمراء لم يعاملوا آثار خصومهم معاملة أعداء بل معاملة أصحاب . وبعد أن ذكر كيف كانوا يتعهدونها وكيف عهدوا إلى مهندسين من العرب استخدموهم لترميمها قال: وأهملت الحمراء من بدء القرن السابع عشر إلى أواسط القرن الثامن عشر فأخذ يسكنها جنود بياطرة وأرباب حرب وحاكة وفاخرانيون وأسرات فقيرة فكانت الأوساخ فيها وفي جدرانها والناس يعبثون بما فيها وربما اصابها شيء من البارود والقذائف فتبدلت محاسنها وبليت بعض حيطانها ونقوشها ورسومها ومعالمها ثم صحت نية حكومة اسبانيا على تعهد تلك القصور وارجاعها إلى حالها وكانت الهمة في هذا الشأن تفتر ثم تتجدد بحسب سلطان ملوك اسبانيا ودرجتهم من العقل والفهم .

وفي هذا القصر أو المدينة البديعة ماعدا الآثار العربية قصر شارلكان أراد أن يوسع به دائرته سنة ١٥٢٦ بناه من الجزية التي كان يتقاضاها من العرب للسماح لهم باجراء بعض شعائرهم . ومن أعمال شارلكان أبنية لم تتم لقلة المال فيما يظهر والغالب انه حاول بما انشأه من الأبنية ان يطمس آثار العرب ليجعل لبنائه الرجحان فلم يتم له ما أراد وبقيت الحمراء أجمل مثال في القصور على مر العصور والدهور .

وليس في الحمراء من الفرش والأواني الباقية من عهد العرب سوى جرة طولها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اكثر من متر صنعت من تراب بالميناء ولها لمعان لازوردي وذهبي رسم عليها حيوانات ونقوش عربية وهي من صنع معامل غرناطة في القديم .

هذه صورة مصغرة من وصف هذا القصر وما طرأ عليه الى يومنا هذا وهو مقصد السائحين من أهل الارض وكأن ابن حمديس وصفه إذ قال :

قصر يقصر وهو غير مقصّر ... عن وصفه في الحسن والاحسان
وكأنه من درة شفافة ... تُعشي العيون بشدة اللمعان
لايرتقي الراقي إلى شرفاته ... الا بمعراج من اللحظان
عرج بارض الناصرية كي ترى ... شرف المكان وقدرة الإمكان
في جنة غناء فردوسية ... محفوفة بالروح والريحان
وتوقدت بالجمر من نارنجها ... فكأنما خلقت من النيران
وكأنهن كرات تبر احمر ... جعلت صوالجها من القضبان
ان فاخر الأترج قال له ازدجر ... حق تجوز طبائع الأيمان
لي نفحة المحبوب حين يشمني ... طيباً ولون الصب حين تراني
مني المصبّغ حين يبسط كفه ... فبنان كل خريدة كبناني
والماء منه سبائك فضية ... ذابت عَلَى درجات شاذروان
وكأنما سيف هناك مشطب ... القته يوم الحرب كف جبان
كم شاخص فيه يطيل تعجباً ... من دوحة نبتت من العقيان
عجباً لها تسقي الرياض ينابعاً ... نبعت من الثمرات والاغصان
خصت بطائرة على فنن لها ... حسنت فافرد حسنها من ثان
قس الطيور الخاشعات بلاغةً ... وفصاحة من منطق وبيان
فاذا أتيح لها الكلام تكلمت ... بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعة ... فخر الجماد بها على الحيوان
اوقت على حوض لها فكأنها ... منها إلى العجب العجاب رواني
فكأنها ظنت حلاوة مائها ... شهداً فذاقته بكل لسان
وزرافة في الجوف من أنبوبها ... ماء يريك الجريَ في الطيران

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مركوزة في الرمح حيث ترى له ... من طعنة الحلق انعطاف سنان
وكأنها ترمي السماء ببندق ... مستنبط من لؤلؤ وجمان
لو عاد ذاك الماء نفطاً أحرقت ... في الجو منه قميص كل عنان
في بركة قامت على حافاتها ... أسد تذل لعزة السلطان
نزعت إلى ظلم النفوس نفوسها ... فلذلك انتزعت من الابدان
وكأن برد الماء منها مطفىء ... ناراً مضرمة من العدوان
وكأنما الحيات من افواهها ... يطرحن انفسهن في الغدران
وكأنما الحيتان اذ لم تخشها ... اخذت من المنصور عقد امان
كم مجلس يجري السرور مسابقاً ... منه خيول اللهو في ميدان
يجلو دماه على الخدود ملاحة ... فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه في سمكها علوية ... وقبابه فلكية البنيان

«١٧» كتابات الحمراء

تقرأ في قصر الحمراء كثيراً من الآيات والمواعظ والاشعار زبرت على الحجر أو بالجص بالخط الاندلسي المشبك وهو اقرب إلى النسخ المتعارف في هذه البلاد الشرقية منه بالخط المغربي ومما تقرأه على احد الابواب « امر ببناء هذا الباب المسمى ببابه الشريعة اسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخراً باقياً على الايام مولانا امير المسلمين السلطان المجاهد العادل ابو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس ابي الوليد ابن نصر كافى الله في الاسلام صنائعه الزاكية وتقبل اعماله الجهادية فشيد ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة واربعين وسبعمائة جعله الله عزة واقية وكتبه في الاعمال الصالحة الباقية . »

ومنها « الملك الدائم والعز القائم » ومنها « الحمد لله على نعمة الاسلام » ومنها « عز لمولانا ابي عبد الله » ومنها « ولاغالب الا الله » ومنها « وما بكم من نعمة فمن الله » ومنها « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا ابي عبد الله امير المسلمين » ومنها « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ومنها « فالله خير حافظاً وهو ارحم الرحمين »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الابيات التي رسمت على احدى القباب في مدح ابي الحجاج يوسف الاول

تبارك من ولاك امر عباده ... فاولى بك الاسلام فضلا وانعما
فكم بلدة بالكفر صبّحت اهلها ... وامسيت في اعمارهم متحكما
وطوقتهم طوق الاسار فاصبحوا ... ببابك يبنون القصور تخدما
وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة ... ففتّحت باباً كان للنصر مبهما
ولو خير الاسلام فيما يريده ... لما اختار الا ان تعيش وتسلما

إلى ان قال :

فامّنت حتى الغصن من نفحة الصبا ... وارهبت حتى النجم في كبد السما
فان رعشت زهر النجوم فخيفة ... وان مال غصن البان شكرك يمما

ومنها: ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا ... وصيرت مافيها لجيشك مغنما

وكتب في قاعة السفراء

انا مجلاة عروس ... ذات حسن وكمال
فانظر الابريق تعرف ... فضل صدقي في مقالي
واعتبر تاجي تجده ... مشبهاً تاج الهلال
وابن نصر شمس فلك ... في ضياء وجمال
دام في رفعة شان ... آمنا وقت الزوال

وكتب ايضاً

وحكيت كرسي العروس وزدته ... اني ضمنت سعادة الازواج
من جاءني يشكو الظماء فموردي ... صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأنني قوس الغمام اذا بدا ... والشمس مولانا ابو الحجاج
لازال محروس المثابة ما غدا ... بيت الإلاه مثابة الحجاج

وكتب على القبة

تحييك مني حين تصبح أو تمسي ... ثغور المني واليمن والسعد والانس
هي القبة العليا ونحن بناتها ... ولكن لي التفضيل والعز في جنسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جوارح كنت القلب لاشك بينها وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس
وان كان اشكالي بروج سمائها ففيّ عدا ما بينها شرف الشمس

ومما كتب ايضاً على بركة صحن الاسود وهو من نظم الوزير ابي عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك تلميذ لسان الدين ابن الخطيب :

تبارك من اعطى الامام محمدا مغاني زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدائع ابى الله ان يلفي لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها تحلي بمرفض الجمان النواحيا
يذوب لجين سال بين جواهر غدا مثلها في الحسن ابيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد فلم ندر ايا منهما كان جاريا
الم تر ان الماء تجري بصفحها ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة تفيض إلى الآساد منها السواقيا
وقد اشبهت كف الخليفة اذ غدت تفيض إلى اسد الجهاد الاياديا
فيا من رأى الآساد وهي روابض عداها الحيا عن ان تكون عواديا
ويا وارث الأنصار لاعن كلالة تراث جلال تستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلداً تجدد اعياداً وتبلي اعـــاديا

ومما كتب في احدى القاعات ايضاً من نظم الوزير ابن زمرك

انا الروض قد اصبحت بالحسن حاليا تأمل جمالي تستفد شرح حاليا
اباهي من المولى الامام محمد باكرم من يأتي ومن كان ماضيا
ولله مبنـاه الجميل فانـــه يفوق على حكم السعود المبانيا
فـــكم فيه للابصار من متنزه تجد به (؟) نفس الحليم الامانيا
تبيت له خمس الثريا معيدة ويصبح معتل النواسم راقيا
به القبة الغراء قلّ نظيرها ترى الحسن فيها مستكناً وباديا
تمد لها الجوزاء كفّ مصافح ويدنو لها بدر السماء مناجيا
تهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها ولم تك في افق السماء جواريا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولو مثلت في ساحتيها وسابقت ... إلى خدمة ترضيه منها الجواريا
ولاعجب ان فاقت الشهب في العلى ... وان جاوزت فيها المدى المتناهيا
فبين يدي مولاي قامت لخدمة ... ومن خدم الاعلى استفاد المعاليا
بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا ... به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جللته بحليها ... من الوشي تنسي السابري اليمانيا
وكم من قسي في ذراه ترفعت ... على عمد بالنور بانت حواليا
فتحسبها الافلاك دارت قسيها ... تظل عمود الصبح إذ لاح باديا
سواري قد جاءت بكل غريبة ... فطارت بها الامثال تجري سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها ... على عظم الاجرام منها لآليا
فلم نر قصراً منه أنعم نضرة ... وأعطر أرجاءً وأجلى مجانيا
مصارفة النقدين فيه بمثلها ... أجاز بها قاضي الجمال التقاضيا
فان ملأت كف النسيم مع الضحى ... دراهم نور ظل عنها مكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها ... دنانير شمس تترك الروض حاليا

ومن الأبيات المزبورة

وجاد بها برد الهواء نسيمها ... فصحت هواءً والنسيم قد اعتلا
وقد حزت من كل المحاسن غاية ... تقبس عنها الشهب في الأفق الاعلا
واني بهذا الروض عين قريرة ... وانسان تلك العين حقاً هو المولى

وفي الاندلس إلى اليوم على كثرة ما انتاب مصانعها وقلاعها ومدارسها وتربها وجسورها وسدودها من التخريب لا تزال ترى بعض كتابات من النظم والنثر وبعضها مثال البلاغة والفصاحة لأن الاندلسيين عاشوا وتنعموا في أرض معتدلة الهواء جميلة الطبيعة فلا بدع أن جادت القرائح على تلك النسبة وظهرت في كتابهم وشعرائهم آثار الابداع والاعجاب . له بقية

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net